

القلب والفكر

تيموثي ز. ويتمر

عندما تسمع لأول مرّة كلمتي القلب والفكر، ربّما تبدأ تفكّر في الوصية العظمى: "تُحِبُّ الرَّبَّ إِلَهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ، وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ، وَمِنْ كُلِّ فِكْرِكَ" (متى 22: 37). يذكر يسوع مستمعيه هنا، أنّه ينبغي عليهم أن يحبّوا الربّ من كلّ كيانهم. يبدو أحياناً كما لو أنّ هاتين الكلمتين تُستخدمان الواحدة مكان الأخرى، إلّا أنّه بالإمكان تمييزهما عن بعضهما البعض. غالباً ما تُستخدم النفس لوصف كيان المرء بأكمله والذي سيستمرّ موجوداً إلى الأبد (16: 26). سيكشف بقيّة هذا المقال عن الفروق الدقيقة في الكتاب المقدّس بين الفكر والقلب.

بكلّ بساطة، الفكر له علاقة بأفكارنا. والقلب يعكس عواطفنا، أيّ الأمور التي نهتمّ به فعلاً. فيما يختصّ الوصية العظمى بأنّ نحبّ الربّ من كلّ القلب والفكر، من الواضح أنّنا بعيدون جدّاً عن هذا المعيار. في الواقع، نحن غير قريبين منه على الإطلاق. يُعلّمنا الكتاب المقدّس أنّ قلوبنا وأذهاننا قد أفسدتها الخطيئة. يُعلّم إرميا أنّ "الْقَلْبُ أَخَذَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ نَجِيسٌ، مَنْ يَعْرِفُهُ؟" (ارميا 17: 9). أمّا فيما يختصّ بالفكر، فالكتاب المقدّس يوجز التأثير الفكريّ (noetic) لسقوط الزوجين الأوّلين. تأتي كلمة (noetic) من الكلمة اليونانية التي تعني "فكر" (nous). يكتب بولس عن الفكر الساقط: "لِأَنَّ أَهْتِمَامَ الْجَسَدِ هُوَ عَدَاوَةٌ لِلَّهِ" (رومية 8: 7).

ومع ذلك، يُخطئ من يظنّ بأنّ القلب والفكر يعملان بشكل مستقلّ. يُعرّف الكتاب المقدّس القلب، عرش العاطفة، بأنّه نظام تشغيل كلّ شيء آخر. "فَوْقَ كُلِّ تَحَفُّظٍ أَحْفَظُ قَلْبَكَ، لِأَنَّ مِنْهُ مَخَارِجُ الْحَيَاةِ" (أمثال

4: 23). تَوَجُّهُ الْقَلْبِ يُوَثِّرُ عَلَى تَفْكِيرِنَا وَأَفْعَالِنَا. لَاحِظْ كَيْفَ أَنَّ الْإِثْنَيْنِ مَرْتَبِطَانِ مَعًا فِي تَكْوِينِ 6: 5:

"وَرَأَى الرَّبُّ أَنَّ شَرَّ الْإِنْسَانِ قَدْ كَثُرَ فِي الْأَرْضِ، وَأَنَّ كُلَّ تَصَوُّرِ أَفْكَارٍ قَلْبِهِ إِنَّمَا هُوَ شَرٌّ كُلَّ يَوْمٍ." الْقَلْبُ هُوَ مَصْدَرُ النِّوَايَا وَالْأَفْكَارِ الشَّرِّيرَةِ. يَرْتَبِطُ بُولْسُ الْإِثْنَيْنِ فِي أَفْسَسِ 4: 18 حِينَ قَالَ: "إِذْ هُمْ مُظْلَمُونَ الْفِكْرَ، وَمُتَجَبِّبُونَ عَنْ حَيَاةِ اللَّهِ لِسَبَبِ الْجَهْلِ الَّذِي فِيهِمْ بِسَبَبِ غِلَظَةِ قُلُوبِهِمْ." (الخطَّ الأسود للتشديد). "مُظْلَمُونَ الْفِكْرَ" وَالْجَهْلُ هُوَ فِي قِسْوَةِ قُلُوبِهِمْ.

يُشِيرُ يَسُوعُ إِلَى الْإِرْتِبَاطِ نَفْسِهِ عِنْدَمَا يَتَحَدَّى أَعْدَاءَهُ كَوْنَهُمْ سَطْحِيِّينَ وَنَامُوسِيِّينَ: "لِلْإِنْسَانِ الصَّالِحِ مِنْ كَنْزِ قَلْبِهِ الصَّالِحِ يُخْرِجُ الصَّلَاحَ، وَالْإِنْسَانِ الشَّرِّيرِ مِنْ كَنْزِ قَلْبِهِ الشَّرِّيرِ يُخْرِجُ الشَّرَّ. فَإِنَّهُ مِنْ فَضْلَةِ الْقَلْبِ يَتَكَلَّمُ فَمُهُ" (لوقا 6: 45). يَمْتَدُّ هَذَا الْإِرْتِبَاطُ مِنَ الْقَلْبِ إِلَى كَلِمَاتِنَا وَسُلُوكِنَا.

هَذَا هُوَ السَّبَبُ فِي أَنَّكَ لَا تَقْدِرُ أَنْ "تَقْنَعُ" شَخْصًا مَا لِيَدْخُلَ فِي الْمَلَكُوتِ. نَعَمْ، الْمَسِيحِيَّةُ مِنْطَقِيَّةٌ وَعَقْلَانِيَّةٌ، لَكِنْ لَا يُمْكِنُ رُؤْيَاةُ الْمَنْطِقِ وَلَا الْعَقْلِ بَدُونِ قَلْبٍ مُتَجَدِّدٍ. يَجِبُ عَلَى الْقَلْبِ، الَّذِي هُوَ نِظَامُ تَشْغِيلِ الْإِنْسَانِ، أَنْ يَتَغَيَّرَ. هَذَا هُوَ بِالضَّبْطِ مَا وَعَدَ بِهِ الرَّبُّ فِي حَزَقِيَالِ 36: 26: "وَأَعْطَيْكُمْ قَلْبًا جَدِيدًا، وَأَجْعَلُ رُوحًا جَدِيدَةً فِي دَاخِلِكُمْ، وَأَنْزِعُ قَلْبَ الْحَجَرِ مِنْ لَحْمِكُمْ وَأَعْطَيْكُمْ قَلْبَ لَحْمٍ." عِنْدَمَا نُعْطَى قَلْبًا جَدِيدًا، عِنْدَهَا فَقَطْ يُمْكِنُ أَنْ تَبْدَأَ عَمَلِيَّةَ تَحْوِيلِ أَفْكَارِنَا.

الْفِكْرُ وَالْقَلْبُ مُشَارِكَانِ فِي عَمَلِيَّةِ التَّحْوِيلِ هَذِهِ. فِيمَا يَخْتَصُّ الْفِكْرَ، مِنَ الضَّرُورِيِّ مَعْرِفَةِ حَقَائِقِ

الْإِنْجِيلِ (notitia). لَا يَكْفِي فَقَطْ مَعْرِفَةُ الْحَقَائِقِ، وَلَكِنْ يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يُوَكِّدَ حَقَائِقَ الْإِنْجِيلِ

(assensus). مِنَ الضَّرُورِيِّ أَيْضًا احْتِضَانُ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ وَقَبُولُهَا (fiducia). هَذَا الْإِحْتِضَانُ الْأَخِيرُ

لِلْحَقِيقَةِ يَجْعَلُ الْقَلْبَ يَشَارِكُ فِي الْوَصْفِ الْكَامِلِ لِلْإِيمَانِ الَّذِي لِلخَلَاصِ.

هذا كله يقود إلى توجهٍ جديدٍ للحياة بأسرها. من هذه النقطة بالذات، نحن مدعوون لتقوية وتحسين قلوبنا لله من خلال إشراك عقولنا. نجد في العهد الجديد بعض العبارات المميزة حول هذا الموضوع. يكتب بولس في رسالته إلى أهل رومية: "وَلَا تُشَاكِلُوا هَذَا الدَّهْرَ، بَلْ تَغَيِّرُوا عَنْ شَكْلِكُمْ بِتَجْدِيدِ أَذْهَانِكُمْ، لِتَخْتَبِرُوا مَا هِيَ إِرَادَةُ اللَّهِ: الصَّالِحَةُ الْمَرْضِيَّةُ الْكَامِلَةُ" (رومية 12: 2). الكلمة المترجمة إلى "تغيروا" هي التي نحصل منها على كلمة "metamorphosis" أي "تحول". عندما نسمع هذه الكلمة، غالبًا ما نفكر في التحول التدريجي الذي يحدث في تطور الفراشة. التشابه معنا هو أنه يوجد تحول تدريجي في طريقة تفكيرنا. لم نعد ملتصقين بالأرض في أفكارنا، لكن ينبغي علينا تطوير منظور جديد يمتد من الأفقي ليشمل منظورًا عموديًا إلهيًا. عبّر بولس عن ذلك بهذه الطريقة في رسالته إلى أهل كولوسي:

فَإِنْ كُنْتُمْ قَدْ فُتِمْتُمْ مَعَ الْمَسِيحِ فَاطْلُبُوا مَا فَوْقَ، حَيْثُ الْمَسِيحُ جَالِسٌ عَنْ يَمِينِ اللَّهِ. ٢ أَهْتُمُوا بِمَا فَوْقَ لَا بِمَا عَلَى الْأَرْضِ، ٣ لِأَنَّكُمْ قَدْ مِتُّمْ وَحَيَاتِكُمْ مُسْتَبْرَةٌ مَعَ الْمَسِيحِ فِي اللَّهِ. (كولوسي 3: 1-3)

من المهم أن ندرك أن سلسلة حُجج بولس لا تهدف إلى إيصال مقاربة "تفكير سماوي غير صالح للأرض". على العكس من ذلك تمامًا: بالنظر إلى ما قاله في رومية، نجد أن تجديد أذهاننا مُصمَّم لمساعدتنا على "اختبار ما هي إرادة الله الصالحة المرضية الكاملة"، مع وجود إشارة ضمنية إلى أنها ستترجم إلى طريقة حياة تكشف محبتنا لخالفنا وفادينا. في حين أن محبتنا لن تكون كاملة أبدًا في هذا الجانب من السماء، فقد أعطى روحه وكلمته لإشعال الشُّعلة في قلوبنا وعقولنا إلى أن نلتقي به.

خدم الدكتور تيموثي ز. ويتمر كراغ لكنيسة القديس استفانوس المصلحة في نيو هولاند، في ولاية بنسلفانيا، وهو بروفييسور فخري لمادة علم اللاهوت العملي في معهد وستمنستر اللاهوتي. وهو مؤلف كتاب Mindscape.